التناقض بين الحياة القديمة والحياة الجديدة (أف ٤: ١٧-٣٢)

الخوري نعمة الله الخوري

تتضمّن هذه المقطوعة من الرسالة الى أهل افسس عدّة تحريضات توجّه حياة المؤمن المرتدّ حديثاً لكي يعيش حياة مسيحية تتناسب مع كيفية حياة الجماعة المسيحية التي انضمّ اليها. انّ الإشارات العديدة الى سر العماد الذي كان يُمارَس بين الجماعات المسيحية الأولى تدفعنا الى الاعتقاد انّ هذا النص يعكس أجواء الكرازة المسيحية الأولى حين كان المبشّرون يحضّرون الوثنيّين لقبول سر العماد. يبدأ هذا النص فيعرض سلوك الوثنيّين (آ ١٧- ١٩)، وتصرّف المؤمنين المعاكس (آ ٢٠-٢١)، ثمّ يشدّد النص على ضرورة خلع الانسان القديم (آ ٢٢)، ولبس الانسان الجديد (آ ٢٣-٢٤)؛ ثمّ يعرض النص بعض الاستنتاجات العملية المرتبطة بهذا الانسان الجديد (آ ٢٥-٣٢).

سنحاول ان نستخرج الإشارات التي تربط هذا النص بسرّ العماد، ثمّ سنقابل بين سيرة الوثنيين وسلوك المؤمنين؛ بعد المقارنة بين الانسان القديم والانسان الجديد، سنعرض بعض متطلبات الحياة الجديدة في المسيح التي يرسمها بولس امام قرّائه.

اولاً : ارتباط النص بليتورجيا العماد

اهتمّ الرسل والمبشّرون بتحضير الوثنيّين للانضمام الى الكنيسة، واعتنوا بإعداد هؤلاء وتنشئتهم وتعريفهم على المبادئ والأسس التي تتميّز بها الجماعة المؤمنة التي سينضمّون إليها. يشكّل العماد المرحلة الفاصلة بين حياة قديمة عنوانها الخضوع للشهوات والضلال والابتعاد عن الله، وبين حياة جديدة تلي العماد، وتتّسم بالصدق والاستقامة والاستنارة بروح الله. هذه الممارسات المرتبطة بسر العماد تجد صداها في المقطوعة التي نعالجها :

١ – يُذكِّر الرسول المؤمنين الذين يتوجّه اليهم بمرحلة تعلّمهم المسيح، فيقول لهم: "أمّا أنتم فما هكذا تعلّمتم ما هو المسيح ، إذا كنتم سمعتم به وتلقّيتم تعليماً مطابقاً للحقيقة التي في يسوع " (آ ٢٠-٢١)؛ هذه إشارة الى التعليم المسيحي السابق للعماد، وقد تلقّنه هؤلاء المؤمنون الذين يتوجّه إليهم الرسول بكلامه حين اختاروا الانضمام الى الجماعة المسيحية.

٢ – فرضت ليتورجيا العماد على طالبي هذا السر ان يخلعوا ثيابهم وينزلوا الى الماء كي ينالوا موهبة الروح، وبعد ذلك يُطلَب إليهم الصعود من الماء فيلبسون ثياباً بيضاء. هذه الممارسة لسرّ العماد تجد صدىً لها في هذا النص : "أتركوا سيرتكم الأولى بترك الانسان القديم الذي أفسدته الشهوات الخادعة، وتجدّدوا روحاً وعقلاً، والبسوا الانسان الجديد الذي خلقه الله على صورته " (آ ٢٢ – ٢٤).

٣ – تشكّل التحريضات الواردة في آ ٢٥–٣٢ مجموعة من الوصايا التي يتعلّمها المعمّد ليسير بموجب حياة جديدة بعيدة عن الكذب والسرقة والغضب وغيرها من الشرور ؛ ان الحياة الجديدة تقتضي العيش بالصدق والاستقامة ومساعدة المحتاجين.

٤ – يطلب الرسول من المؤمنين ان لا يُحزنوا روح الله القدوس الذي خُتموا به ليوم الفداء (آ ٣٠)؛ هذا

الختم يُذكّرنا بالمسح بالزيت ساعة العماد حيث ينال المعمّد، بواسطة الروح، علامة أبدية تضمن انتماءه إلى الجماعة وهي لا تُمحى.

باختصار نقول إن هذه الإشارات الواضحة إلى مراحل قبول سر العماد تُضفي على النص الذي نعالجه رنّة عمادية؛ يريد الرسول ان يُعلّم قرّاءَه ان العماد يُشكّل المرحلة الفاصلة والحاسمة بين حياة قديمة عنوانها الخطيئة، وبين حياة جديدة تتمحور حول عيش الفضائل الإلهية.

ثانياً : المقابلة بين سيرة الوثنيين وسلوك المؤمنين (آ ١٧-٢١)

يُذكّر بولس قرّاءه بحياتهم السابقة التي لا يزال الوثنيون خاضعين تحت عبوديتها؛ هؤلاء الوثنيون هم فريسة الجهل الديني، لأنّ قلوبهم قاسية وبصائرهم مظلمة، فأضحوا غرباء عن الله؛ هكذا تعوّد الرسول على تحذير المؤمنين في مختلف الكنائس من هذه الحياة الوثنية الفاسدة، ونحن نجد وصفاً دقيقاً لحياة الوثنيّين الشاذة في الرسالة إلى الرومانيّين حيث يعالج الرسول هذه المسائل بإسهاب : الوثنيون يعيشون تحت غضب الله لأنهم لم يعرفوه منذ الأزل، لذلك أسلمهم الله إلى الشهوات الدنيئة، وامتلأوا إثماً وشراً وفساداً (روم ١ : ١٨-٣٢).

بعد ان عرض الرسول حياة الوثنيّين المظلمة، انتقل إلى مرحلة جديدة ومشرقة، فذكّر قرّاءه انهم تعلّموا المسيح بطريقة يجهلها الوثنيون؛ يقول لهم : "أمّا انتم فما هكذا تعلّمتم ما هو المسيح"؛ أضحى المسيح موضوع تعلّم كما يتعلّم التلميذ في المدرسة مادة الكيمياء ؛ هؤلاء المرتدّون من الوثنية تعلّموا ما هو المسيح عبر المعلّمين الذين أعدّوهم ليقبلوا سر العماد. يتضمن التعليم المسيحي إعلان الخلاص الذي تحقّق في شخص يسوع، فقد سلّم الرب القائم من الموت رسله مهمة التعليم التي تسبق سر العماد بقوله : "إذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس" (مت ٢٨: ١٩).

ثالثاً : ترك الانسان القديم ولبس الانسان الجديد (آ ٢٢-٢٤)

ان ترك الانسان القديم يعني التخلّي عن طريقة الحياة الأولى؛ فالمطلوب من المؤمن أن يتوب ويرتدّ عن عبادة الأوثان، وعليه أن يبتعد عن الفتور الديني، فيتحوّل داخلياً، وينال الخلاص بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس؛ هذه هي ميزات الانسان الجديد الذي يلبسه المعمّد بعد الخروج من الماء؛ فقد ترك الانسان القديم مثلما يخلع ثوباً بالياً، وبعد ذلك يلبس ثوباً جديداً يرمز إلى الانسان الجديد الذي خلقه الله على صورته ومثاله.

حين عالج الرسول موضوع العماد في رسائله ، قابل مراراً بين الانسان القديم الذي يئنّ تحت نير الخطيئة، وبين الانسان الجديد الذي يُولد بعد منح سر العماد ؛ يقول بولس في رسالته إلى أهل كولوسي : "خلعتم الانسان القديم وكلّ أعماله، ولبستم الانسان الجديد الذي يتجدّد في المعرفة على صورة خالقه" (كو ٣:٩-١٠)؛ وهنا لا بدّ من الإشارة الى التقارب الواضح والأكيد بين اف ٤: ٢٢-٢٤ وبين كو ٣: ٩-١٠. من ناحية أخرى، نلاحظ أن الرسول يؤكّد في رسالته إلى أهل غلاطية أن الذين اعتمدوا في المسيح قد لبسوا المسيح (غل ٣: ٢٧). هذا التعرّي عن الانسان القديم ينتمي إلى الرمزية العمادية، في حين أن الثوب الجديد الذي يلبسه المؤمن يرمز إلى الحياة الجديدة التي تتبع سر العماد.

رابعاً : متطلّبات الحياة الجديدة في المسيح (آ ٢٥-٣٢)

يرسم الرسول أمام أعين قرّائه مجموعة من التحريضات التي تتوجّه إلى حياتهم الشخصية، وهي تتركّز حول العبور من الانسان القديم إلى الانسان الجديد :

١ - إمتنعوا عن الكذب (آ ٢٥)

يتضمّن النداء للابتعاد عن الكذب انقطاعاً عن الانسان القديم وانطلاقاً إلى انسان جديد يقول الحق ؛ يجب أن

يتكلّم المؤمنون بالصدق، والباعث على ذلك هو انتماؤهم إلى جسد المسيح السري ، وهذا واضح من قول الرسول : "لذلك امتنعوا عن الكذب، وليتكلّم كل واحد منكم كلام الصدق مع قريبه، لأننا كلنا أعضاء بعضنا لبعض" (آ ٢٥). ان حياة الجماعة المصلّية تتطلّب الصدق في المعاملة كي ينمو جسد المسيح السري، لأن أساس هذا الجسد مبنيّ على الصدق في المعاملة.

٢ – إذا غضبتم لا تخطأوا (آ ٢٦)

الغضب والرعدة يستوليان على الانسان في وقت الشدة، وقد قال صاحب المزامير : "إرتعدوا ولا تخطأوا" (مز ٤: ٥). ويقول النص الموازي في الرسالة إلى أهل كولوسي : "إطرحوا الغضب والسخط والخبث" (كو ٣: ٨). ان الغضب بحدّ ذاته هو شرّ، ولكنّ الانسان يستطيع أن يسيطر على هذا الشر الكامن فيه، فيضع له حدّاً حين يمنع الغضب من أن يمتدّ إلى الليل : "لا تغرب الشمس على غضبكم"، وبالتالي لن يفكّر بالانتقام من خصمه. لا يجب ان يستسلم المؤمن للغضب، بل عليه أن يحتفظ بغيظه، وقد شدّد الرب في عظة الجبل على ضرورة الابتعاد عن الغضب بقوله: "من غضب على أخيه استوجب حكم القاضي" (مت ٥: ٢٢).

٣ – نصائح مختلفة (آ ٢٧ - ٣٢)

يشدّد الرسول على ضرورة التخلّي عن عدّة رذائل، أهمها السرقة والتفوّه بكلام الشر والحقد والنقمة والشتيمة وغيرها؛ استعاد بولس تعليم الوصايا التي أعطاها الله لموسى على الجبل، تلك التي تحرّم السرقة (خر ٢٠: ١٥). إن الكلمة الصالحة تخرج من فم المؤمن، في حين أن كلام الشر يميّز الخطأة، ونحن نعلم أن الشجرة الصالحة تثمر ثمراً جيداً، والشجرة الرديئة تحمل ثمراً رديئاً" (مت ٧: ١٧).

تنتهي هذه النصائح بدعوة الى الغفران (آ ٣٢)؛ فكما غفر الله لنا هكذا ينبغي أن نغفر للقريب، لأن محبة القريب ترتكز على محبة الله الذي أحبّنا فبذل نفسه لأجلنا.

خاتمة

تضمّنت المقطوعة التي درسنا مجموعة من المتناقضات التي تعالج عدة مستويات من الحياة اليومية؛ على المستوى الاجتماعي يميّز الرسول بين مجموعة من الوثنيّين الذين يعيشون في الضلال، وبين مجموعة من المؤمنين الذين يعيشون بهدي الروح القدس الذي خُتموا به. على المستوى الوجودي ، قارن بولس بين الانسان القديم والانسان الجديد، وعرض الخصائص التي تميّز كلاً منهما. على مستوى الزمن، فصل الرسول بين الحياة القديمة التي تسبق العماد، وبين الحياة الجديدة التي تليه؛ هذه المتناقضات تتضمّن نصائح وإرشادات تهدف إلى بنيان الجماعة المؤمنة.

نحن أمام تعليم جديد يرسم الأطر العامة لحياة المؤمن المعمّد؛ ان الانسان الجديد الذي لبسناه ساعة العماد يتعرّض باستمرار لمجموعة من الشوائب والأخطاء، فيجب علينا أن نتجدّد دوماً من خلال الابتعاد عن الرذائل التي يعدّدها الرسول في هذه المقطوعة، لنستطيع أن نحافظ على بهاء الثوب الجديد. هذا العبور من القديم إلى الجديد هو مسيرة متواصلة بدأها شعب الله بعبوره البحر الأحمر، وختمها الرب بعبوره من الموت، ودخوله إلى حياة جديدة في المجد الأبدي. إن حياتنا التي تستلهم النصائح الإنجيلية هي استباقٌ لحياتنا الجديدة التي سنحصل عليها ساعة اللقاء بالعريس السماوي.